حول الاتباعية والابتداعية

Classicism and Romamticism

للاستاذ نخرى قسطندى

— ٢ —

عرضنا فى مقال سابق للونين من ألوان الأدب، وضربين من ضروب الخلق الفنى هما الكلاسيكية والرمانتيكية، وأبنّا كيف اضطرب القول فيهما وتضارب الرأى فى مدلولاتهما وممانيهما، ثم رجعنا بالذاكرة إلى القرن الثامن عشر، وألمعنا إلى اهتمام الأدباء الإنجليز بآثار الماضى التالدة، وإلى اشتغالهم بدراستها وتبيان محاسنها. تلمس ذلك فى أحاديثهم، وتستشفه فى كتاباتهم، وتطالعك به تواليفهم، حتى لقد يشتد بك العجب ويأخذ منك كل مأخذ، فأنت لا تقع على كاتب أو شاعر إلا وقد أغرق فى وصف هذه الآثار والأطلال والرسوم، وأمعن فى التعبير عن إعجابه بها: فهو مفتون بروعتها، مأخوذ بسحرها وجاذبيتها.

ولا عجب، فهذه أشياء كلها ذات طابع ابتداعى يزينها ويجعلها تنفرد به ويختص بها. غير أنها ليست ذات طابع رومانتيكى فحسب، بل هى تتسم أيضاً بطابع قومى، له ما للطابع الرومانتيكى من خصائص ومميزات، وبينه وبين الكلاسيكية من بون شاسع واختلاف كبير كالاختلاف بين الرومانتيكية والكلاسيكية. فهناك مقطوعات رومانتيكية أو قومية، كما أن هناك مقطوعات كلاسيكية. وتكون المقابلة بين رومانتيكية هذه المقطوعة وبين كلاسيكية تلك. ولا أدل على ذلك أو أبلغ من قول هرد فى «رسائله عن الفروسية والرومانس أن منظومة الملكة الجنية Faerie Queene للشاعرة الإنجليزية الكبيرة إدمند سبنسر Edmund Spenher منظومة قومية، وليست كلاسيكية كما يزعم البعض.

ومن ثم فأنت ترى أن الطابع القومى ينبىء عن عصور غابرة أزال الله من دولتها، فانطمس رسمها ودرس منها، هى العصور الوسطى، وأنت ترى أن مثله فى ذلك مثل الطابع الرومانتيكى تماماً. فهو يتراءى مثله إلى أبعد غايات الشذوذ والاضطراب بدلا من التجانس والاتساق، وهو يمتاز بخيال مقرب يتنكب الطريق المطروق، فيحيد عن المألوف ويخرج على المعروف.

وما كان الأدب إلا شكلاً من أشكال الفن يقوّم بما يقوم به الفن من معايير، ويقاس بما يقاس به، ويصدق على الفن ما يصدق عليه. والأدب شعر ونثر وما يتصل بالشعر والنثر من مبحث وموضوع، وأنماط وقوالب، وصيغ وتراكيب، وعبارات وألفاظ، وعرض وسياق، وحس وشعور. وهو إما أدب رومانتيكى قومى يتصف بما تتصف به آثار العصور الوسطى، ويضرب شعره ونثره وما يتصل بهما بسهم وافر فى الشذوذ والاضطراب والإغراب فى الخيال. وهو إما أدب غير رومانتيكى قومى، خلو من جميع الخصائص والصفات التى سبق ذكرها.

هذا ما كان من شأن الأدب، وهذا ما كان من شأن الرومانتيكية فى انجلترا فى القرن الثامن عشر. غير أن الدهر غير، فما هى إلا دورة من دورات الفلك حتى درست القومية، واندثرت، واختفت من معاجم الأدب. وحان الحين للرومانتيكية أن تتربع وحدها على عرشها، وأن تصبح ذات الكلمة النافذة والسلطة الأولى واليد الطولى فى الحكم على تواليف الأدباء. على أن الرومانتيكية لم تستقر طويلاً فى انجلترا، فما لبث أن ذاع صيتها واشتهر أمرها وترامى خبرها إلى فرنسا. فاستعملها روسو فى كتاباته، وكان استعماله لها بشيراً بازدياد سيرورتها واتساع انتشارها. فما هى إلا فترة أو بضع فترة حتى تلقفها الكتاب الألمان، وعكفوا على درسها وشرحها، فاستوعبوها وفلسفوها وبينوا معالمها واختطوا لها الأصول والقواعد

ويعزو جيته إلى نفسه فضل إدخال هذه الكلمة إلى المانيا، ونحن نشك فى هذا الفضل فقد يعزى إليه أو قد يعزى إلى غيره؛ ولكن هذا لا يعنينا فى هذا المقام، وإنما يعنينا أن نستقصى ما قاله، ونتعرف ما له من أثر. قال:

«إن فكرة التفرقة بين الشعر الكلاسيكى والشعر الرومانتيكى هذه التفرقة التى طبقت شهرتها الآفاق، والتى تثير من المنازعات والانقسامات الشىء الكثير، ترجع فى الأصل إلى شيلر Schiller وإلىّ. فقد صغت فى عبارة موجزة طريقة معالجة الشعر معالجة موضوعية، وأنا آبى أن أقتفى خطى أية طريقة أخرى، غير أن شيلر الذى يهتم بالناحية الذاتية يعد طريقته الطريقة الصحيحة. وقد اعتنق آل شليجل Schlegels هذه الفكرة، ومن ثم فقد

انتشرت فى جميع أنحاء العالم، وكل فرد يتحدث الآن عن الكلاسيكية والرومانتيكية اللتين لم يطرقهما أحد بتفكيره منذ خمسين عاما ».

والواقع الذى لا مرية فيه أن چيته ساهم بنصيب موفور فى انتشار الرومانتيكية . وينعكس ذلك فى الكتاب الذى طلعت به مدام ستايل madame de Staël على جمهرة النقاد وعامة القراء وعنوانه « من الألمانية ، De L'allemagne » ، وأتت فيه على ذكر الرومانتيكية عند أدباء الألمان ، وما استأثرت به من عنايتهم الفائقة واهتمامهم البالغ . أما مدام دى ستايل فيقول عنها فيكتور هيجو فى مقدمته لديوان أشعاره Nouvelles Odes إنها أول من جرى لسانها بعبارة « الادب الرومانتيكي » فى فرنسا

وكأن لفظة رومانتيكى سئمت حياة الترحال والتجوال ، وحنت إلى حياة الثبات والاستقرار ، فولت وجهها شطر وطنها الأصلى ، فعادت إلى انجلترا ، واطمأن بها القام هناك ، وقد وضحت معالمها واستبانت خطوطها ، على نحو لا ترقى إليه شبهة بل ينهض عليه الدليل .

فبيرون يفهم من الرومانتيكية ما يفهمه چيته حين يقول — أى بيرون « إن شليجل ومدام دى ستايل حاولا جهدهما أن يلتزما فى تقسيم الشعر قسمين اثنين ، هما الكلاسيكى والرومانتيكى وسوف يكون من نتيجة ذلك مناقشات حامية » .

ومن عجب أن الرومانتيكية لم تصادف هوى فى نفوس أدباء الإنجليز ، فصدفوا عنها ولم يعنوا بها عناية غيرهم بها ، بالرغم من أنهم هم الذين ابتدعوها وابتكروها . فبينا نرى الرومانتيكية فى فرنسا وألمانيا قبلة أنظار الكتاب والشعراء ، ثم عنوانا لمدرسة من المدارس الأدبية ، نراها فى انجلترا محل استخفاف الأدباء الإنجليز واستهانتهم ، ومن ثم فقد أعوزها عندهم الدقة والوضوح . أما الفرنسيون فقد وضعوا الكتب والمؤلفات فى التعريف بها ، وبذلوا الجهد الجهيد فى تحديد مفهوماتها ومدلولاتها ، ولسل لبرنتير Brunetiere الفضل الأكبر فى إزالة ما يكتنفها من غموض وإبهام . أما الألمان فقد نسجوا حولها نظرية فلسفية أحكموا أطرافها فجاءت متلاحمة متواشجة ، يدفعهم إلى ذلك الجرى وراء المجردات ، والاندفاع وراء النظريات .

(للبحث بقية)

فتحى قطرى

صدر كتاب

هـــذى هي الأغـــلال

تأليف الأستاذ عبد الله القصيمى

سيقول مؤرخو الفكر :

إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل . . . ثورة فى فهم العقل والدين والحياة دراسة نفاذة للعوامل النفسية والاعتقادية والاجتماعية والتاريخية والخلقية التى قضت بأغلال المسلمين عربهم وعجمهم وذهابهم فى طوفان الغرب الطاغى . . . ثم كيف يمكن أن ينحسر عنهم هذا الطوفان الثمن جنيه مصرى

يطلب من مكتبة الخـــانجى بمصر

ومكتبة المثنى ببغداد والمكتبة العمومية بدمشق